مروان وذخائرهم، فإن أطلقتَه ربما مضى إلى السلطان وأخبره بما وصل إليك. فبعث إلى ياقوت الخادم وابن الأزرق يأمرهما بقتله، فقال ابن الأزرق للخادم: هذا رجل كبير القدر، وربما عزل ابنَ جَهير من البلاد فلا تقتُلْه. قال: وكيف أعمل؟ قال: أظهِرْ موته وأخْفِه. فقال الخادم لابن الأنباري: تمارَضْ أياماً. ففعل وعاده الناس والأطباء، ثم أظهر موته، وأخرج جنازةً وصلَّى عليها الناس، وكتب إلى ابن جَهير بذلك، وأثبت موتَه على القاضي، ثم ظهر ابنُ الأنباري بعد مفارقة ابن جَهير البلاد، ولم يأخذ أحد من الوزراء من الأموال والجواهر ما رأى ابن جَهير من بلاد بني مروان، ولم تزل الأقدار تتقلب به حتى عاد إلى الموصل فمات بها.

وكان قد سأل السلطان لمَّا رأى تغيُّره عليه أن يأذن له في المقام بالموصل، فأذِن له، فمرض في رجب، وتُوفِّي، فحمل أمراءُ بني عقيل جنازته إلى تلِّ توبة شرقي الموصل، فدُفِنَ به.

السنة الرابعة والثمانون وأربع مئة

فيها في صفر كتب الوزير أبو شجاع إلى الخليفة يُعرِّفه باستطالة أهل الذمة على المسلمين، وأنَّ الواجبَ تمييزُهم عنهم، فأمره الخليفة أن يفعل ما يراه، فألزمهم لبس الغيار والزنانير، وتعليق الدراهم الرصاص في أعناقهم، مكتوب على الدراهم: ذمِّي، وتُجعل هذه الدراهم في حلوق نسائهم في الحمامات ليُعرَفْنَ بها، وأن يلبسنَ الخفاف فردةً سوداءَ وفردةً حمراء، وخلخالاً في أرجلهن، فذلُّوا وانقمعوا، وأَسْلَمَ حينئذٍ أبو سعد بن الموصلايا كاتبُ الإنشاء للخليفة، وابنُ أخيه أبو نصر هبةُ الله، وسأل أن يكون ذلك بحضرة الخليفة، فأُجيب إلى ذلك.

وفي جمادى الأولى قدم أبو حامد الطوسي الغزالي بغداد مدرساً بالنظامية ومعه توقيع نظام الملك[1].

(١) هذان الخبران في المنتظم ١٦/ ٢٩٢.

وفي شعبان حدث بالشام زلزلةٌ عظيمةٌ لم يُسمع بمثلها، ووافق ذلك تشرين الأول، وخرج الناسُ من دورهم هاربين، وانهدم معظم أنطاكية، ووقع من السور نحوٌ من تسعين برجاً، ونزل آق سنقر على فامية فأخذها وأخرج ابنَ ملاعب منها.

ووردت الأخبارُ بأنه مات سلطان سمرقند المرتب في مملكة جدِّه.

وفي رمضان خرج توقيع الخليفة بعزل الوزير أبي شجاع من الوزارة، وكان له أسباب:

أحدُها أن نظام الملك كان يكرهه ويروم الوزارة لابنه.

ومنها شكوى أصحاب السلطان منه وما يعاملهم به.

ومنها أن الخليفة كان قد ضجر من أفعالِه وكَسْرِه لأغراض الديوان، وتبرُّمِه بالخدمة، وكان قليلَ الرغبة فيها، فصادف ذلك أن السلطان لمَّا فتح سمرقند كتب إلى بغداد، فخلع الخليفة على البشير، وضرب بين يديه الدبادب، فقال أبو شجاع: وأيُّ بشارة هذه؟ كأنه من بلاد الكفار، وهل هم إلَّا مسلمون استُبيح منهم ما يُستباح من الكفرة؟ وكتب إلى السلطان بذلك، فشقَّ عليه، وكتب إلى الخليفة يشكوه، ووافق ما ذكرناه من الأسباب، فعزله وهو بالديوان، فلم يتأثَّر، وقام على حاله في حاشيته وهو ينشد: [من الوافر]

تــولَّاهــا ولــيــسَ لــهُ عــدوٌّ وفــارقَــهــا ولــيــسَ لــه صــديــقُ

ثم ورد كتاب نظام الملك بإبعاده عن بغداد، فاستأذن في الحجِّ فأُذِن له، فخرج إلى مشهد أمير المؤمنين رضوان الله عليه، فأقام به ينتظر الحاجَّ، وبلغ نظام الملك، فَرقَّ له، وكتب إليه يقول: سألتُكَ بالله أن أكون عديلَك. وكان النظام عَزَمَ على الحج، لكن لم يُقْدَرْ له، فقال أبو شجاع لرسوله: اخدمه عني، وقل له: منذ أطبق أمير المؤمنين دواتي لم أفتحها، ولولا ذلك لكتبتُ الكتاب والجواب، وأنا أعادله بالدعاء. ولمَّا فارق الوزير الديوان ناب فيه ابن الموصلايا الكاتب ولُقِّب أمينَ الدولة[1].

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٢٩٣.

وفي رمضان أخرج الخليفةُ أبا محمد التميمي إلى ميَّافارقين يُحضر عميدَ الدولة ابنَ جهير ليولِّيه الوزارة، وسببه ميل نظام الملك إليه، وكونه صهره على ابنته.

وفي رمضان دخل السلطان بغداد ومعه نظام الملك، فخرج إلى لقائه ابنُ الموصلايا والموكب، ثم سار السلطان إلى زيارة المشهدين الحائر ومشهد الكوفة، ومعه ولده وولد ابنته من الخليفة.

وفي ذي القعدة قدم عميد الدولة بغداد ومعه الأعيان؛ القاضي أبو القاسم بن نُباتة، وولده أبو الحسن، والقاضي أبو بكر بن صدقة، وغيرهم. ويقال: إن عميد الدولة والجماعة قصدوا أصبهان وقدموا بغداد مع السلطان، واستناب عميد الدولة أخاه الكافي، وكان أصغر إخوته بميَّافارقين، وخلع الخليفةُ على عميد الدولة خِلَع الوزارة وهذه هي النوبة الثانية [من][1] وزارته، وركب إليه نظام الملك إلى داره بباب العامة فهنأه.

وفي ذي الحجَّة عَمِلَ السلطان السَّذَقَ[2] بدجلة، وهو إشعال النيران والشموع العظيمة في السفن والزواريق الكبار، وعلى كل زورق قبة عظيمة، وبات أهل بغداد على جانب دجلة من كل ناحية، وحملوا الملاهي في السفن، ولم يبقَ ببغداد من حاشية السلطان وغيرهم إلَّا من حمل الشمع والمشاعل، وكانت ليلةً عظيمة، وعلى السطوح أيضاً، وأكثرَ الشعراءُ في ذلك، فقال أبو القاسم المُطرِّز: [من البسيط]

وكلُّ[3] نارٍ على العُشَّاقِ مُضْرَمةٌ ... من نارِ قلبي أو من ليلةِ السَّذَقِ
نارٌ تجلَّتْ بها الظَّلماءُ واشتبَهَتْ ... بسُدْفةِ الليلِ فيها غُرَّةُ الفلَقِ
وزارتِ الشمسُ فيها البدرَ واصطلحا ... على الكواكبِ بعد الغَيظِ والحَنَقِ
مُدَّتْ على الأرضِ بُسْطٌ من جواهِرِها ... مابينَ مجتمِعٍ وارٍ ومُفترِقِ
مثلِ المصابيحِ إلَّا أنَّها نزلَتْ ... من السماءِ بلا رجْمٍ ولا حَرَقِ

(١) ما بين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ٢٩٤ .

(٢) وقع في الأصلين (خ) و(ب): الصدق، والصواب ما أثبتُّه، والسَّذَق: كلمة فارسية معرَّبة، وقد ذكر المصنف معناها. ينظر اللسان (سذق).

(٣) في (خ): وكأن، والمثبت من (ب)، والمنتظم ١٦/ ٢٩٤ ـ والخبر فيه ـ ، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٤٧٥ وغيرهما من المصادر.

أعْجِبْ بنارٍ ورضوانٌ يُسَعِّرُها ومالكٌ قائمٌ منها على فرَقِ
في مجلسٍ ضحكَتْ روضُ الجِنان لَهُ لمَّا جلا ثغرُهُ عن واضحٍ يَقَقِ[1]
وللشموعِ عيونٌ كلَّما نظرَتْ تظلَّمَتْ من يديها أنجمُ الغَسَقِ
مِنْ كلِّ مُرهَفةِ الأعطافِ كالغصنِ الـ ـمَيَّادِ لكنَّهُ عارٍ من الورقِ
إنِّي لأعجَبُ منها وهي[2] وادعةٌ تبكي وعيشتُها في ضربة العُنُقِ

قال المصنف رحمه الله: إن أبا القاسم المطرز [مات سنة تسع وثلاثين وأربع مئة، فإما أن يكون هذا الشعر لمطرِّزٍ آخر][3] أو يكون وهماً من الكاتب، أو نسياناً، والله أعلم.

وقال أيضاً: أنشدني علي بن الحسن الأبنوسي بالموصل سنة ثلاث وست مئة في نار السَّذَقِ[4] منها: [من المنسرح]

واللهِ ما خمرةٌ مُشَعْشَعةٌ خمراً تأتَّى كالشمسِ في الغَسَقِ
مشمولةٌ تغتدي وقد سكِبَتْ لابسةً حُلَّةً من الشَّفَقِ
رَقَّتْ وطابَتْ عَرْفاً فلو سُقِيَتْ عُزَيرَ عامَ السُّباتِ[5] لم يَفِقِ
ولا حيا[6] ديمةٍ له زَجَلٌ قد جعل الأرضَ منهُ في طبقِ
أقام شهراً ينهَلُّ هيدبُهُ[7] مُنْبَجِساً لم يُبِنْ عن الأُفقِ
تحسَبُ منه بروقَه سحراً نارَ مجوسٍ في ليلة السَّذقِ
يوماً بأيدٍ من الملوكِ ولا أطيبَ عَرْفاً من نشرِهِ العَبِقِ
يا ابنَ الفلانيِّ يا أعزَّ فتًى له أيادٍ كالطَّوقِ في عُنقي
أثقلْنَ ظهري بحملِهِنَّ فلو رُمْتُ نهوضاً بالشُّكرِ لم أُطِقِ

---

(١) اليَقَق واليَقِق: شديدُ البياض ناصِعُه. اللسان (يقق).

(٢) في (خ): كل، والمثبت من (ب) والمصادر المذكورة آنفاً.

(٣) مابين حاصرتين من (ب).

(٤) السَّذَق: مُعرَّب «سَذَه» أي ليلة الوقود، وهي ليلة عيد عند الفرس يشعلون فيها نيراناً عظيمة. ينظر اللسان (سذق)، ومجلة المنار لمحمد رشيد رضا العدد (٥٦) الصفحة ٤.

(٥) تصحفت في (خ) إلى: عزيز عام الشباب، والمقصود عُزَيرٌ عليه السلام حينما أماته الله عزَّ وجل.

(٦) الحيا: المطر. اللسان (حيي).

(٧) الهيدب: السحاب المتدلِّي. اللسان (هدب).

وفيها حاصر تُتُش طرابلس ومعه آق سنقر بُزان، وبها جلال الملك ابن عمار، فاحتجَّ عليه بأنَّ معه منشور السلطان بإقراره على البلد، فلم يقبل منه تُتُش، ونصب عليه المجانيق، وتوقَّف آق سنقر عن قتاله، فقال له تُتُش: أنتَ تبَعٌ لي فكيف تخالفني؟ فقال: أنا تبَعٌ لك إلا في عصيان السلطان، وهذا من أصحابه. فغضب تاج الدولة ورجع إلى دمشق، ومضى آق سنقر إلى حلب، وبُزان إلى الرُّها.

وفيها بعث السلطان سعد الدولة الكوهراني إلى اليمن، فاستولى على البلاد السهلية والساحلية دون القلاع، وخطب للسلطان بها، فاستقام له معظم الدنيا إلَّا مصر والمغرب، وكان في عزمه أن يسير إلى مصر بنفسه، فجاءه ما لم يَكن في حسبانه.

وفيها ملك يوسف بن تاشفين الأندلس ونفى ابن عباد عنها، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

عبد الرحمن بن أحمد بن علَّك[1]

أبو طاهر، الأصبهاني، ولد بأصبهان، وسمع الحديث، وسافر إلى سمرقند فتفقَّه بها. وقيل: إنه كان السبب في فتحها، وكان من رؤساء الشافعية، كثيرَ المال، واسعَ الحال، يُقرض الأمراء من خمسين ألف دينار فما زاد، وكان عظيمَ الجاه، قدم مع السلطان إلى بغداد فتوفِّي، فمشى تاج الملك وحاشية السلطان إلى قبره بين يدي جنازته من النظامية إلى باب أبْرز، وجاء السلطان عشية ذلك اليوم إلى قبره وصلَّى عليه، وجاء نظام الملك فجلس عند قبره وهو يُدفَن، فقال: لا إله إلا الله، دُفِنَ في هذا المكان أزهدُ الناس في الدنيا وأرغبُهم فيها، يشير إلى أبي إسحاق الشيرازي، فإنه الزاهد، وإلى ابن علَّك، فإنه الراغب.

وكان قد مشى جميع الدولة في جنازته إلا نظام الملك وحده، فإنه ركب واعتذر بعلوِّ السن.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٩٥-٢٩٦ ، والكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٠٠ ، تحرف في الأصلين (خ) إلى: عليك، وفي (ب) إلى غلبك، والتصويب من المصدرين المذكورين، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٣٢ وغيرها من المصادر.

وكان فقيهاً فاضلاً، لم يُرَ في زمانه فقيهٌ أنصفُ منه ولا أعلم، وكانت له هيبةً حسنة، ومروءةٌ ظاهرة.

عيشون بن عمران بن محمد[١]

أبو بكر، الرَّبَعي، السَّبتي، قدم الشام، وحجَّ ونزل بغداد، وسمع الحديث، وأعطاه ابنُ جَهير كتباً من المقتدي إلى وُلاة الغرب بإقامة الدعوة له، وكان وجيهاً، فجاء الإسكندرية وركب البحر، وبلغ بدراً الجمالي ذلك فطلبه ففاته، فلمَّا كان بعد أيام ردَّت الريحُ المركب الذي كان فيه إلى الإسكندرية، فقبضوا عليه، وأخذوا الكتب، وحُمِلَ إلى بدر فقتله، وكان فاضلاً ثقةً.

محمد بن أحمد[٢]

ابن علي بن حامد، أبو نصر، المروزي، كان إماماً في القراءات، وصنَّف فيها التصانيف، وانتهت إليه الرياسة فيها، وغرق في البحر، وجاء وقت الصلاة، وزالت الشمس، فشرع في الصلاة على حسب الحال، فنُجِّي ببركات تلك النية، وعاش نيِّفاً وتسعين سنة، ومات في ذي القعدة أو الحجة.

محمد بن علي بن محمد[٣]

أبو عبد الله، التنوخي، الحلبي، ويُعرف بابن العُظَيمي، ومن شعره: [من البسيط]

يلقى العِدا بِجَنانٍ ليس يُرعِبُهُ ... خَوْضُ الحِمامِ ومتنٍ ليس ينقصِمُ
فالبِيضُ تُكسَرُ والأوداجُ داميةٌ ... والخيلُ تعرِمُ والأبطالُ تلتطِمُ
والنقعُ غيمٌ ووقْعُ المرهَفاتِ بهِ ... لمعُ البوارقِ والغيثُ المُلِثُّ دَمُ

(١) لم أقف على من ترجم لعيشون هذا سوى المصنف.
(٢) المنتظم ١٦/ ٢٩٧.
(٣) تاريخ دمشق ٥٤/ ٣٩٣-٣٩٤.